



منذ أن انطلقت الثورة السورية في 15 آذار 2011، تباينت ردود أفعال مختلف الدول بما يمكن أن تسفر عنه هذه الثورة من نتائج على الأرض، خصوصاً بعد أن دخل الجيش الحر كطرف رئيس على الساحة السورية.

فقبل أن يلتزم الجيش الحر بحماية المتظاهرين، كانت هناك فرصة أمام النظام الحالي ليتخلى عن الأسلوب الأمني، فيدعوه إلى انتخابات نيابية حرة تحت إشراف دولي، وكانت مدة مجلس الشعب "شبه المعين" قد شارت على النهاية.

سوء التقدير والخطأ في الحساب جعلاً النظام يرفض القيام بأي إصلاحات حقيقة، والفرصة كانت سانحة أمام الرئيس بشار ليعلن أنه لن يرشح نفسه لولاية ثالثة.

لم يكن الأمر يحتاج إلى كل ذلك اللف والدوران في المكان والإعلان عن إصلاحات، ولم تكن إصلاحات هامشية أصلاً، بل كان كلاماً منمقًا على الورق.

وكانت الممارسة على الأرض تمزق بنودها قبل أن يجف حبرها، فيلغى قانون الطوارئ رسمياً، والقتل يجري على قدم وساق ضد المتظاهرين.

ردود أفعال الدول الغربية لم تتعد حدود الشجب اللفظي لما يرتكبه النظام في سوريا من قتل واعتقال وتشريد. واشنطن من جهتها لم تطور وسائلها القديمة، فأباقت التركيز على العقوبات الاقتصادية ضد النظام وضد رموزه، ونسجت أوروبا على منوالها. العقوبات جربت ضد نظام "صدام حسين" بصورة أشد مما مورست ضد النظام السوري.

ولم يكن هناك دول تدعم نظام صدام حسين مثلما دعمت إيران وحكومة المالكي وحزب الله المسيطر في لبنان النظام السوري ووفرت النفط والمال والخبراء في حرب العصابات. مع ذلك فلولا اجتياح بغداد في عام 2003 لبقي نظام صدام حسين أعواماً عديدة.

ما يحتاجه الجيش السوري الحر ليس عقوبات اقتصادية ضد دمشق فحسب، وهي قد أثرت بالمواطن السوري أكثر مما فعلت بالنظام، بل يحتاج إلى صواريخ أرض جو تستطيع تحبيط ومن ثم إسقاط طائرات النظام التي فتكت بسكان المدن السورية، خاصة وأن مدرعات كتائب النظام تضاءل مفعولها في حرب المدن على وجه الخصوص، فقتل من قادة الدبابات من قتل وأسر من أسر وانشق من عناصرها الكثير، ومن تبقى منهم أصابه التعب والإرهاق.

أصبح معروفاً على نطاق واسع أن واشنطن رفضت السماح لأنقرة تزويد الجيش السوري الحر بصواريخ "استنجر" ذات الدقة العالية في إصابة الهدف بحجة الخوف أن تقع بيد المتطرفين. ولو سمحت بوصول المضادات للجيش الحر لما رأينا المجازر في حلب وريفها في أعزاز وفي ريف إدلب في جبل الزاوية وفي ريف دمشق في التل وفي داريا، وفي ريف درعا. على أن الدول العربية لم تكن أفضل تصرفًا. فقد أعلنت تجميد عضوية سوريا، وكانت تأمل بتدخل دولي في سوريا تحت "البند السابع" مثلما فعل في ليبيا وكوسوفو.

صحيح أن دولاً عربية أمدت بالمال وكان أكثره في مجال الإغاثة، لكنها لم تفعل ما فعلته إيران وحزب الله، وبشكل أقل حكومة المالكي، عندما أمدت نظام بشار بالسلاح والمال والخبراء.

حال العرب مع واشنطن في القضية السورية ينطبق عليه: "الجمال الأمريكي ببال والجمل العربي ببال". إسرائيل رفضت تغيير الرئيس بشار بحجة أن حاكماً تعرفه أفضل من حاكماً لا تعرفه. عندما أدركت إسرائيل، وهي تعرف من حال العرب أكثر مما يعرفه العرب عن حالهم، أن التغيير في سوريا قادم لا محالة، أعطت إلى واشنطن الضوء الأخضر. لكن شهرزاد كان أدركتها الصباح وأصبحت الانتخابات الرئاسية الأمريكية على الأبواب، وأصبح الخوف من أخطاء اتخاذ قرار التدخل في سوريا يفزع إدارة "أوباما".

الاتحاد السوفييتي عام 1991، كان يملك نصف نفوذ العالم، مع ذلك استطاعت واشنطن أن تتحصل منه على قرار لمجلس الأمن يقضي بغزو العراق. ولو أرادت واشنطن أن تستخدم مع "فلاديمير بوتين" الأسلوب الذي استخدم مع "ميخائيل جورباتشوف".

والجميع يعرف كيف تم ذلك، لما كان الفيتو الروسي والصيني المزدوج الذي وقف حائلاً أمام قرار من مجلس الأمن تحت البند السابع يسمح - على الأقل - بحظر الطيران في منطقة الحدود الشمالية على امتداد تركيا ويشكل منطقة آمنة يلجم إليها الخائفون، ولما رأينا المجازر في أعزاز وأمام أفران الخبز في حلب وفي داريا وفي كفرنبل. لكن الدم السوري أرخص من البترول.

حتى تبرر رفضها اتخاذ زمام المبادرة فتسمح بتسليم الجيش السوري الحر صوراً يخيفها ستيونجر محمولة على الكتف ضد الطائرات التي تغير على الأحياء، فقد زعمت واشنطن بأنها تخشى من وقوع هذه الصوراً في أيدي متطرفين إسلاميين، يمكن استخدامها ضد واشنطن بعد رحيل بشار أسد، وهي حجة متهافتة.

لأن أي جهة تقدم هذه الصوراً إنما تسلّمها إلى كتائب الجيش الحر الذي يعرف كيف يستخدمها. ثم إن هذا الجيش الحر قد تربى على ثقافة حزب البعث، بعيداً عن الثقافة الإسلامية.

المذابح التي كانت تقوم بها كتائب بشار أبقيت في ضمير كثيرين من منسوبي الجيش السوري حسهم الوطني المرتبط بثقافة دينية تربوا عليها في بيوت آبائهم، فانشقوا عن تلك الكتائب.

ولو أن منظري واشنطن في مراكز الأبحاث لديها قرأوا بتمعن ما توحّي به مفردة "انشقاق" لتبيّن لهم أن هذه المفردة لم تكن مفردة إسلامية، بل إنها مفردة غربية أطلقت على المنشقين في الاتحاد السوفييتي سابقاً.

المفردة التي يعرفها التاريخ الإسلامي هي "الانحياز"، حيث جاء في القرآن الكريم قول الله تعالى: (وَمَنْ يُوَلِّهُمْ بِدْرَهُ إِلَّا مُتَرَّفًا لِقَتَالٍ أَوْ "مُتَحِيزًا" إِلَى فَتَةٍ، فَقَدْ بَاءَ بِغَضْبٍ مِنَ اللَّهِ ... الآية 16 من سورة الأنفال).

بعد هذه الاستهانة بنزيف الدم السوري، وكأنه نزيف دماء أبقار في مسلخ، نسمع على مدار الساعة عن أن هناك اجتماعات تعقد بين واشنطن وحلفائها لبحث الوضع في سوريا بعد رحيل بشار أسد!

ولا يسأل هؤلاء أنفسهم عمّا قدموا لإرغام هذا الطاغية على الرحيل؟ ويوم مات يهودي أمريكي في الثمانينات من عمره بحادثة اختطاف سفينة "أُخْيَلْ لُورُو" عام 1988 أقامت واشنطن الدنيا ولم تقعدها، مع أنه مات ميّة طبيعية، "موت ربه" كما يقال.

كلمة أخيرة أقولها لهؤلاء الذين انشغلوا بترف معرفة ماذا سيجري في سوريا بعد رحيل قاتل الأطفال بشار أسد: إن السوريين أعلم من أن ينجرروا بعد رحيل النظام الحالي إلى تصفيات دموية، متلماً حصل في العراق بعد سقوط نظام صدام حسين، وما حصل في العراق كان من "بركات واشنطن الدموية".

لقد استقال "أديب الشيشيكي" في عام 1954 وغادر سوريا، واستعادت سوريا عافيتها وعادت إلى الحكم المدني. ولا يحتاج الأمر إلى اهتمام خاص من واشنطن. لتسمح بتسلیح الجيش الحر، وسنجد أن غالبية الجيش المعطل عن العمل سيشكلون مع كتائب الجيش الحر ورشة عمل لإنقاذ سوريا مثلما جرى بعد رحيل أديب الشيشيكي.

المصدر: العصر

المصادر: